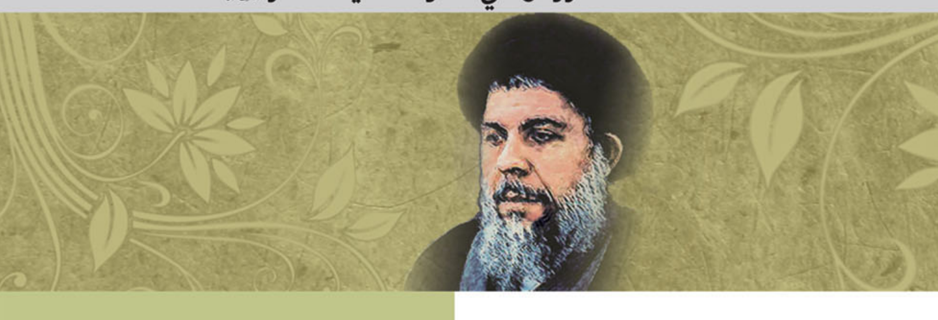


1

قوانين تحكم التاريخ

سلسلة دروس في فكر الشهيد الصدر قدس سره





الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org



مركز نون للتأليف والترجمة

قوانين
تحكم التاريخ

جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة
بيروت . لبنان . المعمورة . الشارع العام
هاتف: ٠١/٤٧١٠٧٠ ـ ص.ب. ٢٤/٥٣ . ٢٥/٣٢٧



الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

اسم الكتاب: قوانين تحكم التاريخ
نشر: جمعيّة المعارف الإسلامية
إعداد: مركز نون للتّأليف والترجمة
الطبعة الأولى: 2009 م/ 1430هـ

قوانين تحكم التاريخ

دروس من فكر الشهيد

السيّد محمّد باقر الصدر قدس سره

مركز نون للتأليف والترجمة

الإعداد والإخراج الالكتروني

www.almaaref.org



المقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق محمّد وعلى آله المنتجبين الأخيار.

إنّ القرآن الكريم كتاب هدايةٍ وعمليّة تغييرٍ، وإخراجٍ للناس من الظلمات إلى النور. ولعمليّة التغيير جانبان، إلهيّ فوق التاريخ والخسارة والربح، وبشريّ خاضع للسنن التاريخيّة. يبتدئ الشهيد بعرض السنن التاريخيّة، معتبراً أنّ القرآن الكريم تفرّد بالإشارة إلى هذا النوع من السنن، وقد كان له الدور البارز في تنبيه الفكر البشريّ للبحث في هذا الميدان، ليكون الإنسان فاعلاً ومؤثّراً في التاريخ بدل أن يبقى متأثّراً ولا يعرف ما ستؤول إليه الأمور، وقد تعرّض الشهيد لعددٍ من الآيات التي يظهر منها صراحةً الحثّ على السير في

الأرض، لاستفادة العبر وأخذ السنن التاريخيّة منها.

هذا البحث الذي بين يدي القارئ الكريم، قامت الجمعيّة باختيـاره من كلام الشهيد، ثـمّ تشذيبه من المكرّرات التي تستوجبهـا المحاضـرات، مـع التصرّف البسيـط بالعبارة محافظة على وحدة السياق، وبالتقديم والتأخير المناسبين مع الإشارة لذلك. كلّ ذلك مـن محاضرتين للشهيد السيّد محمّد باقر الصدر (رضوان الله عليه) ألقاهما بتاريخ: ٢٥ و٢٦/ جمادى الأولى / ١٣٩٩ هـ.

وقد حاولنا قدر الإمكان المحافظة على عبارات الشهيد السعيـد، مع إضافـة بعض العناويـن للفقـرات والأبحاث، وإعـادة ترتيب لبعض الأبحاث المترامية، وجمعها في بحث واحد.

وقـد تمّ طباعة هاتيـن المحاضرتين في كتاب المدرسة القرآنيّة، ويمكن مراجعة المجموعة الكاملة لمؤلّفات السيّد محمّـد باقر الصـدر/ دار التعارف للمطبوعـات/ بيروت ـ لبنان/ ط. ١٩٩٠ م/ ج ١٣.

الأهداف

١ . التعرّف إلى مفهوم السنن التاريخيّة.

٢ . إدراك ضرورة البحث عن السنن الحاكمة في التاريخ.

٣ . التعرّض لنماذج الآيات المتفرّدة في طرح هذا المفهوم.

٤ . التعرّف إلى أنّ عمليّة التغيير القرآنيّة والهداية لها جانبان: إلهيّ وبشريّ.

تمهيد

هل للتاريخ البشريّ سننٌ في مفهوم القرآن الكريم؟
هل له قوانين تتحكّم في مسيرته وفي حركته وتطوّره؟
ما هي هذه السنن التي تتحكّم في التاريخ البشريّ؟

لقد بُحثَ في القرآن الكريم الجزء الأعظم من مواده ومفرداته من زوايا مختلفة، وهناك أيضاً زاوية أخرى للبحث تضاف إلى تلك الزوايا، من زاوية مقدار ما تلقي هذه المادّة من أضواء على سنن التاريخ، على تلك الضوابط والقوانين والنواميس التي تتحكّم في عمليّة التاريخ، إذا كان يوجد في مفهوم القرآن شيءٌ من هذه النواميس والضوابط والقوانين.

الساحة التاريخيّة كأيّ ساحةٍ أخرى زاخرةٌ بمجموعةٍ من

الظواهــر، كما أنّ الظواهر في كلّ ساحــةٍ أخرى من الساحات لها سنن ولها نواميس. من حقّنا أن نتساءل:

هل هذه الظواهر أيضاً ذات سننٍ وذات نواميس؟

وما موقف القرآن الكريم من هذه السنن والنواميس؟

ومــا هو عطاؤه في مقام تأكيد هذا المفهوم إيجاباً أو سلباً، إجمالاً أو تفصيلاً؟

ضرورة البحث عن السبب

السنن التاريخيّة عبارة عن الضوابط والقوانين والنواميس التي تتحكّم في عمليّة التاريخ.

لقــد بيّنت هذه الحقيقة في عدّة آياتٍ. في بعض هذه الآيات أعطيــت الفكرة بصيغتهــا الكليّة، وفــي بعض الآيــات أعطيت علــى مستوى التطبيق على مصاديق ونمــاذج، وفي آيات أخرى حصــل الحــثّ الأكيد على الاستفــادة من الحــوادث الماضية، وشحذ الهمم لإيجاد عمليّة استقراء للتاريخ. وعمليّة الاستقراء للحــوادث ـ كمــا تعلمون ـ هي عمليّــة علميّة بطبيعتهــا، تريد أن

تفتّش عن سنّةٍ، عن قانونٍ، وإلا فـلا معنى للإستقراء من دون افتراض سنّةٍ أو قانونٍ. إذاً هنـاك ألسِنَةٌ متعددةٌ درَجت عليها الآيات القرآنيّة في مقام توضيح هذه الحقيقة وبلورتها.

تفرّد القرآن بمفهوم السنن التاريخيّة

وهـذا المفهوم القرآنيّ يعتبر فتحاً عظيمـاً للقرآن الكريم، لأنّنـا في حدود ما نعلم، القـرآن أوّل كتابٍ عرفـه الإنسان أكّد على هـذا المفهوم، وكشف عنه وأصرّ عليه، وقاوم بكلّ ما لديه من وسائـل الإقنـاع والتفهيم. الإنسـان الاعتيـاديّ كان يفسّر أحداث التاريخ بوصفها كومـةً متراكمةً من الأحداث، يفسّرها علـى أساس الصدفة تـارةً، و تارةً أخرى علـى أساس القضاء والقـدر والإستسلام لأمر الله سبحانـه وتعالى. القرآن الكريم قـاوم هذه النظـرة العفويّة، وقاوم هذه النظـرة الإستسلامية، ونبّـه العقل البشريّ إلى أنّ هذه الساحة لها سننٌ، ولها قوانين، وأنّـه لكـي تستطيع أن تكون إنسانـاً فاعلاً مؤثّـراً؛ لا بدّ لك أن تكتشف هذه السنن، لا بدّ لك أن تتعرّف إلى هذه القوانين؛ لكي

تستطيـع أن تتحكّم فيهـا ، وإلا تحكّمت هي فيـك وأنت مغمض العينين. افتـح عينيك على هذه القوانين، افتح عينيك على هذه السنـن، لكي تكون أنت المتحكّم، لا لكـي تكون هذه السنن هي المتحكّمة فيك.

هذا الفتـح القرآنيّ الجليل، هو الذي مهّـد إلى تنبيه الفكر البشـريّ بعـد ذلـك بقـرون، إلـى أن تجـرى محـاولاتٌ لفهم التاريـخ فهماً علميّاً. بعد نـزول القرآن بثمانية قرون بدأت هذه المحـاولات، بدأت علـى أيـدي المسلمين أنفسهـم، فقام ابن خلـدون بمحاولةٍ لدراسة التاريخ وكشف سننه وقوانينه، ثمّ بعد ذلـك بأربعة قرون ـ علـى أقلّ تقدير ـ اتّجه الفكـر الأوروبّي في بدايـات ما يسمّى بعصر النهضة، بدأ لكي يجّسد هذا المفهوم الـذي ضيّعه المسلمون، والذي لم يستطع المسلمون أن يتوغّلوا إلى أعماقه. هذا المفهوم أخذه الفكر الغربيّ في بدايات عصر النهضـة، وبـدأت هناك أبحـاثٌ متنوّعـة ومختلفةٌ حـول فهم التاريـخ، وفهم سنن التاريخ، ونشأت مدارس متعدّدة كلّ واحدةٍ منها تحاول أن تحدّد نواميس التاريخ.

وقد تكون الماديّة التاريخيّة أشهر هذه المدارس، وأوسعها تغلغلاً، وأكثرها تأثيراً في التاريخ نفسه. إذاً كلّ هذا الجهد البشريّ في الحقيقية، هو استمرار لهذا التنبيه القرآنيّ. ويبقى للقرآن الكريم مجده؛ في أنّه طرح هذه الفكرة لأوّل مرّةٍ على ساحة المعرفة البشريّة.

التأثير المباشر للسنن في عمليّة التغيير

إنّ البحث في سنن التاريخ مرتبطٌ ارتباطاً عضويّاً شديداً بكتاب الله بوصفه كتاب هدىً، بوصفه إخراجاً للناس من الظلمات إلى النور، لأنّ الجانب العمليّ البشريّ والتطبيقيّ من هذه العمليّة، يخضع لسنن التاريخ، فلا بدّ إذاً أن نستلهم، ولا بدّ إذاً أن يكون للقرآن الكريم تصوّرات وعطاءات في هذا المجال؛ لتكوين إطارٍ عامٍ للنظرة القرآنيّة والإسلاميّة عن سنن التاريخ.

إذاً هذا لا يشبه سنن الفيزياء والكيمياء والفلك والحيوان والنبات. تلك السنن ليست داخلةً في نطاق التأثير المباشر على عمليّة التاريخ، ولكن هذه السنن داخلةٌ في نطاق التأثير

المباشر على عمليّة التغيير، باعتبار الجانب الثاني (البشريّ).

إذاً لا بدّ من شرح ذلك ولا بدّ أن نترقّب من القرآن إعطاء عموميّات في ذلك. نعم لا ينبغي أن نترقّب من القرآن أن يتحوّل أيضاً إلى كتابٍ مدرسيٍّ في علم التاريخ وسنن التاريخ؛ بحيث يستوعب كلّ التفاصيل وكلّ الجزئيّات، حتّى ما لا يكون له دخل في منطق عمليّة التغيير التي مارسها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وإنّما القرآن الكريم يحتفظ دائماً بوصفه الأساسيّ والرئيسيّ، يحتفظ بوصفه كتاب هدايةٍ، كتاب إخراج للناس من الظلمات إلى النور، وفي حدود هذه المهمّات الكبيرة العظيمة التي مارسها، في صدور هذه المهمّة، يعطي مقولاته على الساحة التاريخيّة، ويشرح سنن التاريخ. بالقدر الذي يلقي ضوءاً على عمليّة التغيير التي مارسها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، بقدر ما يكون موجّهاً وهادياً وخالقاً لتبصّرٍ موضوعيٍّ للأحداث والظروف والشروط. ونحن في القرآن الكريم نلاحظ هذه الحقيقة، حقيقة أنّ للتاريخ سنناً، أنّ الساحة التاريخيّة عامرةٌ بسننٍ كما عمرت كلّ الساحات الكونيّة الأخرى بسنن.

الفرق بين سنن التاريخ والساحات الأخرى

ننتظـر من القرآن الكريم أن يعطينـا عموميّات، أن يعطينا مواقـف، أن يبلور لـه مفهوماً علميّاً في سنـن التاريخ على هذه الساحة (التاريخيّة) من ساحات الكون، بينما ليس للقرآن مثل ذلـك على الساحات الأخرى. يوجـد فرقٌ جوهريٌّ بين الساحة التاريخيّة وبقيّة ساحات الكون. هذا الفرق الجوهريّ يجعل من هذه الساحة ومن سنن هذه الساحة أمراً مرتبطاً أشدّ الارتباط بوظيفـة القرآن ككتاب هدايةٍ، خلافـاً لبقيّة الساحات الكونيّة، والميادين الأخرى للمعرفة البشريّـة، وذلك أنّ القرآن الكريم كتـاب هدايـةٍ وعمليّة تغييـرٍ، هـذه العمليّة التي عبّـر عنها في القرآن الكريم بأنّها إخراجٌ للناس من الظلمات إلى النور.

وعمليّة التغيير هذه فيها جانبان:

الجانب الأول: إلهيّ

جانب المحتوى والمضمون: ما تدعو إليه هذه العمليّة التغييريّة من أحكام، من مناهج، ما تتبنّاه من تشريعات، هذا الجانب من عمليّة التغيير جانبٌ ربانيٌّ، جانبٌ إلهيٌّ سماويٌّ. هذا الجانب يمثّل شريعة الله سبحانه وتعالى التي نزلت على النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، وتحدّى بنفس نزولها عليه كلَّ سنن التاريخ الماديّة؛ لأنّ هذه الشريعة كانت أكبر من الجوّ الذي نزلت عليه، ومن البيئة التي حلّت فيها، ومن الفرد الذي كلّف بأن يقوم بأعباء تبليغها.

الجانب الثاني: بشريّ

لكن هناك جانبٌ آخر لعمليّة التغيير، التي مارسها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه الأطهار. هذه العمليّة حينما تلحظ بوصفها عمليّة اجتماعيّة متجسّدة في جماعةٍ من الناس، وهم النبيّ والصفوة من الصحابة، وبوصفها عمليّة قد واجهت تيّاراتٍ اجتماعيّةً مختلفةً من حولها، واشتبكت معها في ألوانٍ من الصراع

والنزاع العقائديّ والاجتماعيّ والسياسيّ والعسكريّ، حينما تؤخذ هذه العمليّة التغييريّة بوصفها تجسيداً بشريّاً واقعاً على الساحة التاريخيّة، مترابطاً مع الجماعات والتيّارات الأخرى التي تكتنف هذا التجسيد، والتي تؤيّد أو تقاوم هذا التجسيد، حينما تؤخذ العمليّة من هذه الزاوية تكون عمليّةً بشريّةً، يكون هؤلاء أناساً كسائر الناس، تتحكّم فيهم إلى درجةٍ كبيرةٍ سنن التاريخ، التي تتحكّم في بقيّة الجماعات، وفي بقيّة الفئات على مرّ الزمن.

إذاً عمليّة التغيير التي مارسها القرآن و مارسها النبيّ ﷺ لها جانبان من حيث صلتها بالشريعة وبالوحي، هي ربانيّة، هي فوق التاريخ، ولكن من حيث كونها عملاً قائماً على الساحة التاريخيّة، من حيث كونها جهداً بشريّاً يقاوم جهوداً بشريّةً أخرى، من هذه الناحية يعتبر هذا عملاً تاريخيّاً، تحكمه سنن التاريخ، وتتحكّم فيه الضوابط التي وضعها الله سبحانه وتعالى لتنظيم ظواهر الكون في هذه الساحة المسمّاة بالساحة التاريخيّة.

ولهــذا نرى أنّ القــرآن الكريم حينما يتحــدّث عن الزاوية الثانية، عن الجانب الثاني من عمليّة التغيير، يتحدّث عن أناسٍ، يتحــدّث عن بشــرٍ، لا يتحدّث عــن رسالة السماء، بــل يتحدّث عنهــم بوصفهم بشــراً، تتحكّم فيهم القوانيــن التي تتحكّم في الآخرين.

ألف: أجَلُ الفرد وأجَلُ الأمّة

فمــن الآيات الكريمة التي أعطيت فيها الفكرة الكليّة، فكرة أن التاريخ له سنن وله ضوابط، ما يلي:

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[1].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[2].

---

(١) يونس: من الآية٤٩.

(٢) الأعراف: ٣٤. وفي هذا السياق أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ الآية ٦١ من سورة النحل.

نلاحظ في هاتيـن الآيتين الكريمتيـن، أنّ الأجل أضيف إلى الأمّـة، إلى الوجود المجموعيّ للناس، لا إلى هذا الفرد بالذات، أو ذاك الفرد بالذات. إذاً، هنـاك وراء الأجل المحدود المحتوم لـكلّ إنسانٍ بوصفه الفرديّ، هناك أجلٌ آخر وميقاتٌ آخر للوجود الاجتماعي لهؤلاء الأفـراد، للأمّة بوصفها مجتمعاً ينشئ ما بين أفـراد العلاقات والصلاحيّات القائمـة على أساس مجموعةٍ من الأفكار والمبـادئ المسندة بمجموعةٍ من القوى والقابليّات. هذا المجتمـع الذي يعبر عنه القرآن الكريم بالأمّـة، هذا له أجلٌ، له موتٌ، له حياةٌ، له حركةٌ، كما أن الفرد يتحرّك فيكون حيّاً ثمّ يموت. كذلك الأمّة تكون حيّة ثمّ تموت. وكما أنّ موت الفرد يخضع لأجلٍ ولقانونٍ ولناموس، كذلك الأُمم أيضاً لها آجالها المضبوطة.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾(١).

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾(٢).

---

(١) الحجر: ٤ و٥.

(٢) المؤمنون: ٤٣.

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

ظاهر الآية الكريمة أنّ الأجل الذي يترقّب أن يكون قريباً أو يهدّد هؤلاء بأن يكون قريباً، هو الأجل الجماعيّ لا الأجل الفرديّ، لأنّ قوماً بمجموعهم لا يموتون عادةً في وقتٍ واحدٍ، وإنّما وجود الجماعة المعنويّ الكليّ هو الذي يمكن أن يكون ﴿قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾.

فالأجل الجماعيّ هنا يعبّر عن حالة قائمةٍ بالجماعة، لا عن حالةٍ قائمةٍ بهذا الفرد أو بذاك، لأنّ الناس عادةً تختلف آجالهم حينما ننظر إليهم بالمنظار الفرديّ، لكن حينما ننظر إليهم بالمنظار الاجتماعيّ، بوصفهم مجموعةً واحدةً متفاعلةً في ظلمها وعدلها، في سرّائها وضرّائها، حينئذٍ يكون لها أجلٌ واحدٌ. فهذا الأجل الجماعيّ المشار إليه، إنّما هو أجل الأمّة، وبهذا تلتقي هذه الآية الكريمة مع الآيات السابقة.

(١) الأعراف:١٨٥.

نتيجة الظلم والطغيان

﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً * وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً﴾[1].

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً﴾[2].

في هذه الآيات الكريمات، تحدّث القرآن الكريم، عن أنّه لو كان الله يريد أن يؤاخذ الناس بظلمهم، وبما كسبوا، لما ترك على ساحة الناس من دابّة، يعني لأهلك الناس جميعاً.

كيف يكون الهلاك للأمّة مع وجود الصالحين؟

وقد وقعت مشكلة في كيفيّة تصوير هذا المفهوم القرآنيّ، حيث إنّ الناس ليسوا كلّهم ظالمين عادةً، فيهم الأنبياء، فيهم الأئمّة، فيهم الأوصياء. هل يشمل الهلاك الأنبياء، والأئمّة

(١) الكهف:٥٨ و٥٩.

(٢) فاطر:٤٥.

العــدول من المؤمنين؟ حتّى أنّ بعض النـاس استغلّ هذه الآيات لإنكار عصمة الأنبياء عليهم السلام .

والحقيقــة أنّ هذه الآيــات تتحدّث عن عقــابٍ دنيويٍّ لا عن عقابٍ أخرويٍّ، تتحدّث عن النتيجة الطبيعيّة لما تكسبه أمّةٌ عن طريق الظلم والطغيان. هذه النتيجة الطبيعيّة لا تختصّ حينئذٍ بخصوص الظالميــن من أبناء المجتمع، بل تعمّ أبناء المجتمع على اختلاف هويّاتهم، وعلى اختلاف أنحاء سلوكهم.

حينمــا وقع التيه أربعين عاماً على بنــي إسرائيل، نتيجة ما كسب هذا الشعب بظلمه وطغيانه وتمرّده، هذا التيه لم يختصّ بخصوص الظالمين من بني إسرائيل، وإنّما شمل موسى عليه السلام ، شمل أطهــر النـاس، وأزكى النـاس، وأشجــع النـاس في مواجهة الظلمة والطواغيت، شمل موسى عليه السلام ، لأنّه جزءٌ من تلك الأمّة وقد حلّ الهلاك بتلك الأمّة.

حينما حــلّ البلاء والعــذاب بالمسلمين نتيجــة انحرافهم، فأصبــح يزيد بــن معاويــة خليفةً عليهــم، يتحكّم فــي دمائهم وأموالهــم وأعراضهــم وعقائدهــم، حينما حلّ هــذا البلاء لم

يختص بالظالمين من المجتمع الإسلاميّ، وقتئذٍ شمل الحسين عليه السلام ، أطهر الناس وأزكى الناس وأطيب الناس وأعدل الناس، شمل الإمام المعصوم عليه السلام ، قُتِلَ تلك القتلة الفظيعة هو وأصحابه وأهل بيته.

بين العذاب الدنيويّ والأخرويّ

هذا كلّه هو منطق سنّة التاريخ. والعذاب حينما يأتي في الدنيا على مجتمعٍ، وفق سنن التاريخ، لا يختصّ بخصوص الظالمين من أبناء ذلك المجتمع، ولهذا قال القرآن الكريم في آية أخرى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[1].

بينما يقول في موضع آخر: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[2].

فالعقاب الأخرويّ دائماً ينصبّ على العامل مباشرةً، وأمّا العقاب الدنيويّ فيكون أوسع من ذلك.

---

(١) الأنفال:٢٥.

(٢) فاطر: من الآية١٨.

إذاً هاتـان الآيتان الكريمتـان تتحدّثان عن سنن التاريخ، لا عن العقـاب بالمعنى الأخـرويّ، والعذاب بمعنـى مقاييس يوم القيامـة، بل عن سنن التاريخ وما يمكن أن يحصل نتيجة كسب الأمّة، سعي الأمّة، جهد الأمّة.

ب: التدبّر بالحوادث التاريخيّة

وهناك آيات أكّدت وحثّت على الإستقراء والنظر والتدبّر في الحـوادث التاريخيّة؛ من أجل تكوين نظرةٍ إستقرائيّة، من أجل الخروج بنواميس وسنن كونيّة للساحة التاريخيّة، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُـرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾[1].

﴿أَفَلَـمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُـرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾[2].

﴿فَكَأَيِّنْ مِـنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَـةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى

(١) محمّد:١٠.

(٢) يوسف: من الآية١٠٩.

عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[1].

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[2].

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[3].

تؤكّد هذه الآيات على السنن، وتؤكّد على ضرورة التتبّع لأحداث التاريخ؛ من أجل استكشاف هذه السنن، ومن أجل الاعتبار بها.

ومن مجموع هذه الآيات الكريمة يتبلور المفهوم القرآنيّ الذي أوضحناه، وهو تأكيد القرآن على أنّ الساحة التاريخيّة

---

(١) الحج:٤٥ و ٤٦.

(٢) ق: ٣٦ و ٣٧.

(٣) آل عمران:١٣٧.

لها سنــنٌ، ولها ضوابط، كمــا يكون هناك سنــنٌ وضوابط لكلّ الساحات الكونيّة الأخرى.

الخلاصة

هــل للتاريــخ البشــريّ سننٌ في مفهــوم القــرآن تتحكّم في مسيرته وحركته وتطوّره؟

إنّ السنــن التاريخيّــة عبارة عــن الضوابــط والقوانين التي تتحكّم في عمليّة التاريخ. وقد بيّنت هذه الحقيقة في عدّة آياتٍ.

وإنّ القــرآن أوّل كتــابٍ أكّــد على هذا المفهــوم، ونبّه العقل البشريّ إلى أنّ هذه الساحة لها سننٌ.

إنّ البحــث في سنن التاريخ مرتبــطٌ ارتباطاً عضويّاً شديداً بكتــاب اللّه بوصفه كتاب هدىً وإخراج للناس من الظلمات إلى النور، فلا بــدّ أن نترقّب من القرآن إعطاء عموميّات في ذلك، في نطاق التأثير المباشر على عمليّة التغيير.

وعمليّة التغيير هذه فيها جانبان:

جانب إلهيّ: ما تدعو إليه هذه العمليّة التغييريّة من أحكام

ومناهج، وما تتبنّاه من تشريعات. هذا الجانب يمثّل شريعة الله التي نزلت على النبيّ محمّد ﷺ وتحدّى بنفس نزولها عليه كلَّ سنن التاريخ الماديّة.

جانب بشريّ: حينما تلحظ العمليّة بوصفها عمليّة اجتماعيّة متجسّدة في جماعةٍ من الناس، النبيّ والصفوة، وبوصفها عمليّة قد واجهت تيّاراتٍ اجتماعيّةً مختلفةً من حولها، بوصفها تجسيداً بشريّاً واقعاً على الساحة التاريخيّة، مترابطاً مع الجماعات والتيّارات الأخرى التي تكتنف هذا التجسيد.

أ. من الآيات الكريمة التي أعطيت فيها الفكرة الكليّة، فكرة أنّ التاريخ له سنن وله ضوابط ما يلي:

١ . ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

نلاحظ أنّ الأجل أضيف إلى الأمّة، إلى الوجود المجموعيّ للناس، لا إلى هذا الفرد بالذات، أو ذاك الفرد بالذات.

٢ . ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا

مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً﴾.

هل يشمل الهلاك كل المجتمع بما فيه الأنبياء والأوصياء؟!

الآية تتحدّث عن عقابٍ دنيويٍّ لا عن عقابٍ أخرويٍّ، عن النتيجة الطبيعيّة لما تكسبه أمّةٌ عن طريق الظلم والطغيان، وأنّها لا تختصّ حينئذٍ بخصوص الظالمين من أبناء المجتمع، بل تعمّ أبناء المجتمع على اختلاف هويّاتهم، وعلى اختلاف أنحاء سلوكهم.

حينما وقع التّيه أربعين عاماً على بني إسرائيل، نتيجة ما كسب هذا الشعب بظلمه وطغيانه، لم يختصّ بخصوص الظالمين منهم، وإنّما شمل موسى عليه السلام أيضاً. هذا هو منطق سنّة التاريخ، ولهذا قال سبحانه في آية أخرى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، بينما يقول في موضع آخر: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾.

ب - وهناك آيات أكّدت وحثّت على الإستقراء والنظر في

الحوادث التاريخيّة؛ من أجل تكوين نظرة إستقرائيّة، والخروج بنواميس وسنن كونيّة للساحة التاريخيّة، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾.

ومن مجموع هذه الآيات وغيرها يتبلور المفهوم القرآنيّ الذي أوضحناه، وهو تأكيد القرآن على أنّ الساحة التاريخيّة لها سننٌ، ولها ضوابط، كما يكون هناك سننٌ وضوابط لكلّ الساحات الكونيّة الأخرى.

الفهرس